# الطفل ممثلاً سينمائيًا

# الطفل ممثلاً سينمائياً

أ. محمود قاسم



إلى أى حد يفقد الأطفال براءتهم حين يعملون فى التمثيل؟ ذلك هو السؤال الذى يطرح نفسه بالنسبة لهذا الكم الكبير من الأطفال الذين عملوا فى التمثيل، سواء فى الإذاعة أو المسرح، أو التليفزيون، أو السينما، هؤلاء الصغار الذين عليهم أن يتصرفوا بذكاء، وهم أمام الكاميرا، والميكروفون، يظهروا كأنهم أكبر سنًا، فنحن ننجذب للأطفال الذين يتصرفون كالكبار.

هؤلاء الأطفال لا يدركون أن السنوات القليلة سوف تمر بهم، وأنهم حتمًا سيصيرون كبارًا وسيفقدون تألقهم. لذا؛ ما أصعب أن يمر المرء من عنق الزجاجة!

وفى عالم التمثيل، فإن عنق الزجاجة يتمثل فى المرحلة الحرجة التى على الممثل الطفل الموهوب أن يتقبل التغيرات التى أصابت جسده، فصار كبيرًا، وعلى المتفرج أن يقتنع به كشاب ناضج، يمكنه أن يقوم بأدوار الشباب، بنفس قوة أدواره وهو طفل.

عنق الزجاجة هذا كان مسدودًا تمامًا لأغلب الأطفال الممثلين الناجحين فى السينما العالمية والعربية، عدا حالات قليلة، فالجماهير التى أحبت الأطفال الممثلين، ورأتهم يقومون بأدوار صعبة وممتعة عزفوا عن مشاهدتهم عندما صار هؤلاء الصغار كبارًا.

والسبب البسيط أن الناس تنظر إلى الطفل الممثل على أنه قد كبر قبل الأوان، ينطق بكلمات، ويؤدى حركات، ويمر بمواقف لا يمر بها إلا الكبار؛ وبالتالى فإن هذا الصغير عندما يأتيه الكبر يكون قد فقد مذاقه المدهش، وعليه أن يتصرف بدون دهشة كشخص كبير ناضج.

حدث هذا فى السينما العالمية لعشرات الممثلين الصغار: شيرلى تمبل، وهيلى مايلز، وماكلاى كلوكين، وبروك تشايلد، وليندا بلير، ودانيل رادكليف الذى قام ببطولة سلسلة "هارى بوتر"، ثم عمل فى أفلام أخرى.

وفى السينما العربية كانت هناك فيروز، وسليمان الجندى، وأحمد فرحات، وكريم عبدالعزيز والاستثناءات قليلة فى هذه الظاهرة. فى السينما العربية تم استثناء نيللى، وبوسى، ولبلبة، وكريم عبدالعزيز.

وفى السينما العالمية كانت درو باريمور هى أهم الاستثناءات على الإطلاق، فقد ظلت تعمل بقوة منذ بدايتها عام ١٩٨٠، وحتى الآن، دون أن تختفى فى فترة التحول من الطفولة إلى الشباب وذلك بعكس الاستثناءات الأخرى، فنيللى اضطرت للبقاء بعيدًا عن الأنظار لأكثر من ثمانية أعوام. كى تفاجأ الناس بها وقد صارت شابة. وحدث الشىء نفسه مع بوسى ولبلبة.

أما درو باريمور، فإنها واحدة من الباقيات من أطفال جيلها، خاصة الذين مثلوا أمامها فى فليم "إى.تى" عام ١٩٨٢، ولعل أبرز مثال على ذلك الطفل هنرى توماس الذى قام بدور إليوت فى الفيلم، فقد قام بأدوار صغيرة هامشية فى أفلام أقل قيمة فى السنوات التالية لنجاحه فى "إى.تى" ثم اختفى، وكانت جودى فوستر قد سبقت فى هذه الظاهرة، حيث ظلت تمثل منذ أن كانت فى الثالثة من عمرها، وحتى تجاوزت الأربعين الآن.

هل يمكن تفسير هذه الظاهرة بالنسبة لدرو باريمور أنها سليلة لأربعة أجيال من أسرة باريمور التى امتهنت التمثيل، وقامت بتوريثه لأبنائها من جيل إلى آخر...؟

أغلب الظن أن الاجابة "نعم"، فالتمثيل هنا بمثابة جين وراثى، ولم تكن الصغيرة التى رأيناها فى "إى تى" مجرد طفلة، لن تلبث الموهبة أن تنزاح عنها عندما تكبر، خاصة أنها تعرضت لمحن قاسية فى هذا السن المبكر، فكبرت فى داخلها قبل الأوان، وصارت عجوزًا، عندما عرفت الإدمان كحولاً ومخدرات.

والآن، وبعد أكثر من ثلاثين عامًا من أول عمل لها فى السينما، فإننا أمام ممثلة، لها نجوميتها، صحيح أن هوليوود لم تعطها الدور الذى يمثل بالونة اختبار، لكنها موجودة فى الساحة بقوة. إذن، فإن ابنة الممثل جون باريمور الابن، وحفيدة الجد جون باريمور الذى رأيناه فى دور الأب فى "صراع تحت الشمس" قد ولدت ممثلة، ولم تكن الطفلة بالنسبة لها سوى رحلة عابرة، رغم دورها فى "إى تى" إخراج ستيفن سبيلبرج.

والغريب أن الطفلة درو قد عرفت الأضواء كممثلة، وهى فى سن الحادية عشرة، وقامت بالعمل فى أفلام إعلانية عن حفاضات الأطفال، كما أنها اشتركت فى التمثيل بأدوار بارزة فى أفلام عديدة قبل أن تراها فى "إى تى"، ولعل ذلك هو الذى لفت أنظار سبيلبرج إليها، وجعله يجرى لها اختبارًا من أجل أن تلعب دور الطفلة جرينى فى فيلمه.

ففى عام ١٩٨٠ مثلت درو فى فيلمين، هما : "بوجى"، و"ولايات متأخرة"، ثم جاء دورها لبنت وحيدة وسط مجموعة من الغلمان فى "إى تى".

وعندما صارت دور نجمة صغيرة، كان على الميراث الثانى أن يظهر فى حياتها، إنه ميراث ملعون، فهى تجد نفسها تسير فى درب الأب نفسه، تدمن مثله تناول الخمور، والمخدرات، وأيضًا ترث عنه حب الشعر، لقد وجدت نفسها مدعوة للعديد من الحفلات، وهى الطفلة، وكان عليها أن تساير الآخرين فى هذه الحفلات، فتقبلت الكؤوس التى كانت تقدم لها، "أردت أن أكون مثل الآخرين"، فى تلك الفترة كان الأب نفسه قابعًا فى إحدى مصحات معالجة الإدمان، أما أمها،

وهى أيضا ممثلة، ورسامة، فكانت تعيش حياة مليئة بالفوضى.

تغيرات عديدة وحادة شهدتها الطفلة فى تلك السنوات، لكنها لم تتوقف عن التمثيل، ففى عام ١٩٨٤ قامت بدور الطفلة فى فيلمين "أحدها من إنتاج سبيلبرج، هو "مشعلة النيران".. عن طفلة صغيرة، يمكنها أن تشعل النيران فى أى شىء أمامها بمجرد النظر إليها، إنه فيلم جديد عن الظواهر الخارقة، تلك الأفلام التى عرفت طريقها إلى الشاشة بكثرة فى هذه السنوات، والظاهرة هنا هى التليكنسس، أى تحريك الأشياء عن بعد.

أما الفيلم الثانى فبعنوان : "اختلافات غير مفهومة"، ومن الواضح أن السينما وضعت الطفلة فى إطار أفلام الرعب، والتشويق، والظواهر الخفية، مثلما حدث عام ١٩٨٥ عندما قامت بدور الفتاة الصغيرة فى فيلم : "عين القط" أمام يسجورتى ويفر..

وقد تلازمت حالات الإدمان المتعددة التى أصابتها بالضياع الذى انعكس على أدوارها العديدة، ففى الفترة بين عامى ١٩٨٦، ١٩٨٧، قامت بأدوار هامشية فى أفلام مجهولة، وعملت فى المسرح فى "قصص غريبة".. تلك المأخوذة عن مسرح الخيال العلمى الذى كتبه راى بواد بورى، ومن بين الأفلام فى تلك المرحلة "مؤامرة حب".

لم يكن هناك حديث عن درو باريمور فى تلك الفترة، سوى عن إدمانها ومحاولة العلاج، واللعنة التى أصابتها من أسرتها : الجمال، والإدمان فابتعدت عنها الصديقات، وبدت شرهة للجنس، وكبرت الطفلة قبل الأوان وهى التى قال عنها سبيلبرج كصغيرة : إنها أعجوبة شديدة اللمعان، أشعر بالذوبان عندما أراها، كانت تجلس وسط مائة طفل آخرين كانوا قد تمت دعوتهم لأداء دور ضمن المجاميع، لكننى عندما رأيتها قررت اختيارها..

ونتيجة لهذا الكبر، فإنها قامت فى بعض الأحيان بأدوار أكبر منها سنًا مثلما حدث عام ١٩٨٩ حين قامت بدور جولين فى فيلم : "بعيدًا عن البيت"، حيث جسدت دور فتاة تعمل فى أحد الكازينوهات، تتسم بالجاذبية، وتحب الجنس والعنف.

وفى مجلة "بارى ماتش" أشارت أن حياتها قد تغيرت كلية بعد دورها فى "إى تى"، وأن هذا النجاح ظل يلازمها طويلاً، بدأت التدخين فى عمر التاسعة والنصف، كنت كثيرة الخروج، وأفعل ما بوسعى لأصير سيئة السلوك، ومن هنا بدأ الانحدار، من الدخان، إلى الكحول، كنت أشرب حتى الثمالة، وفيما بعد شعرت بالملل مما أفعله، فقررت أن أفعل شيئًا مختلفًا، فى العاشرة والنصف من عمرى، بدأت فى تدخين الأعشاب".

أما عن أدوارها السينمائية فأغلبها كانت فى أفلام قليلة الأهمية، ومنها "أراك فى الصباح" عام ١٩٨٩، و"بدون الشيطان" عام ١٩٩٠، و"متوراما" ١٩٩١، و"فصل راقص"، و"سم آيفى"، و"سلاح مجنون" عام ١٩٩٠، أما عام ١٩٩٣ فقد بدأت فيه تعود إلى توازنها، وتبدو متألقة لأول مرة بعد أحد عشر عامًا، فى فيلم : "قصة آمى فيشر"، وهو عمل تليفزيونى عن قصة حقيقية لفتاة أشبه فى حياتها بالممثلة التى جسدت الدور، درو باريمور، فهى صبية صغيرة من طراز لوليتا، أصابها الإخفاق والفشل فى قصة حبها لرجل يكبرها فى السن، فأرادت التخلص من زوجته بالقتل.

وكان الحظ إلى جوار الشابة التى قامت بهذا الدور، حيث أن قصة آمى فيشر كانت لاتزال ماثلة فى الأذهان حتى تلك الفترة، ثم أن هناك ممثلة أخرى قامت بنفس الشخصية فى فيلم

آخر، جعلت المتفرجين يرون الفرق الهائل بين الجمال والأداء.. لصالح درو باريمور بالطبع.
الصور المنشورة للفتاة فى تلك الفترة كانت تشير إلى هذا العدد الكبير من الصور المعلقة فوق فراشها للممثلة مارلين مونرو، وكان هذا يعنى أن هناك حلمًا مؤكدًا بأن تنال مكانها، فهى جميلة، وموهوبة. وفى عام ١٩٩٤ كانت القفزة الأساسية فى حياتها وهو فيلم "نساء شريرات"، وفيه وقفت الممثلة أمام ثلاث من زميلاتها الجدد، منهن مادلين ستون وآندى ماكدويل من أجل القيام بدور أربع فتيات فى الغرب (الوسترن) يقمن بأعمال مضحكة، الفيلم من نوع الوسترن النسائى من ناحية، وهو كوميدى من ناحية أخرى، كما أنه شهد منافسة قوية بين الممثلات الأربع، وكان النجاح فى المقام الأول من نصيب درو باريمور، وهى هنا لم تتقلد بمارلين مونرو، قدر محاولة السير على منهاج شارون ستون، النجمة القنبلة فى تلك الآونة.

وقد جاء فى المجلات هذا العام أن درو باريمور ستصبح نجمة عام ٢٠٠٠، وهذا الكلام لا يأتى من فراغ، ليس بناء على دورها فى "فتيات شريرات" فقط، وإنما انطلاقًا من مشاريع بدأت تعرض عليها.

استطاعت الفتاة أن تتخلى عن كافة أساليب الإدمان، وأن تقوم ببطولة أفلام تناسب الكبار والصغار معًا، منها "باتمان للأبد"، كما جسدت دور سندريلا للأبد فى دور يمزج بين الكوميديا والرومانسية، فبدت كأنها مخلوقة لهذا الدور، وفى عام ١٩٩٩ قامت بدور المراهقة التى لم يقبلها أحد قط، وفى عام ٢٠٠٠ جسدت دور سبق لفرح فاوست أن قدمته فى مسلسل "ملائكة تشارلى" أمام كاميرون دياز، ولوسى ليو، لتؤكد من جديد أنها جميلة، وأيضًا الأكثر موهبة.

لكن هذا لم يمنع أن درو بدأت فى تنويع أدوارها، من أفلام تعتمد على الإغراء مثل "سم آيفى" إلى أدوار الرعب، وفى فيلم : "حفل زفاف المغنى" قامت أمام آدم سندلر بدور العروس، وفى عدد من مجلة "لوك" الإنجليزية حول "إعادة ميلاد" فإن وينونا رايدر قيل إنها يمكن أن تكون أودرى هيبورن الجديدة، إن سلمى حايك ستكون صوفيا لورين السينما القادمة، وإن جوينث بالترو هى جريس كيلى القرن الجديد، وإن درو باريمور ستكون جين هارلو فهى شقراء، وموهوبة مثلها، لكن الذى لم تشر إليه المجلة أن هارلو ماتت فى ظروف مأساوية.

الممثلة المصرية التى تمر الآن بحالة من التغيرات الملحوظة، وتنتقل من الطفولة إلى المراهقة، هى منة عرفة، المولودة فى القاهرة عام ٢٠٠٠، أى أنها تجاوزت سن الثانية عشرة وقد تواجدت بقوة فى الساحة الفنية وأمام الكاميرات، بشكل لم يحدث لممثلة مصرية، منذ أن اختفت فيروز، بمعنى أننا رأيناها تعمل فى إعلانات تجارية تليفزيونية.. وعملت أيضًا فى الكثير من المسلسلات التليفزيونية، ومنها : "السندريلا"، و"المفطراتى"، والست هانم عايزة تلعب بى، وحضرة الضابط أخى، كما أنها حصلت على لقب سفيرة الطفل العربى عام ٢٠٠٩، أى وهى فى التاسعة من العمر، مما يعنى أن الطفلة قضت فترات طويلة فى الاستوديوهات، وأمام الكاميرات وفى مناسبات عديدة، أطول من الفترات التى قضتها فى المدرسة أو البيت، وقد ظهرت هذه الطفلة وهى فى سن الخامسة تقريبًا، ولمعت بعد أن توقفت زميلتها مها عمار عن التمثيل فى النصف الأول من العقد الماضى.

وقد اخترنا منة عرفة لأن المخرجين قد منحوها أدوارًا تجعلنا نعى أنها ليست أبدًا طفلة، وأنها مجرد شخص صغير السن، لكنه يفهم جيدًا فى أمور الكبار، وبدا ذلك واضحًا فى فيلمها "آخر كلام" الذى أخرجه أكرم فريد عام ٢٠٠٨، أى وهى فى الثامنة من عمرها.. فقد تصرفت كأنها تعرف ما يعرفه من هم أكبر سنًا، من خلال "نورا" إحدى أفراد أسرة تتكون من أب وثلاثة أبناء، هذه الصغيرة تشاهد التليفزيون بشكل أقرب إلى الإدمان، وهى تفهم ماذا يعنى مصطلح الفيلم الثقافى، ويبدو ذلك من خلال علاقتها بأخيها الذى يعمل فى أحد البنوك، هذا الأخ الذى يدمن بدوره مشاهدة الأفلام الإباحية، وتلاحظ أخته هذا الاهتمام، فتبدأ فى منافسته فى مشاهدة هذه الأفلام، والاحتفاظ باسطوانات مدمجة عليها هذه الأفلام، وتبدو المنافسة قوية بين الطرفين عقب إصابة الأب المتزمت بجلطة فى المخ تلزمه الفراش طوال عامين، ويستغل الأبناء الثلاثة الفرصة لتحقيق أحلامهم، حيث تصبح أميرة مطربة مشهورة قبل أن يفوق الأب من الغيبوبة، وعندما يسترد الأب وعيه يصدم فيما حدث، فيطلق النار على كبيرته أميرة، وتموت نورا حين تفادى أختها.

وقد كشف الفيلم ما يحدث لأطفال اليوم فى بعض البيوت، لكن نحن نتوقف عند هذه النقطة للإشارة إلى أن الطفلة الممثلة، كانت قد استوعبت المفردات اللغوية للكبار وهى تقوم بهذا الدور، ولاشك أنها مع احتفاظها بشكلها الطفولى البرىء من الخارج، كانت فى الواقع أكثر فهمًا لأمور تخص الكبار، فالفيلم رغم أنه كوميدى، قد استخدم آليات تجعل الأطفال فى قاعات العرض يتساءلون عن سر المنافسة بين الأخ وشقيقته لمشاهدة هذا النوع من الأفلام، ولذا كانت القاعة تمتلئ بالضحكات حين يتنافس الإخوان لامتلاك الشريط الإباحى، من أجل مشاهدته.

فيما قبل، كان الممثل السينمائى الطفل، يحتفظ ببراءته على الأقل على الشاشة، وكم غاب بعضهم أثناء سنوات التحول، قبل أن يعودوا للتمثيل كشباب وفتيات، ومنهم على سبيل المثال وجدى العربى، وشريهان، وبوسى، وعلا رامى، وغيرهم.